الفصل السادس

العهـــد العثمانى

ابتداء من القرن السادس عشر ، يقـــع الوطن العربى تحت سـيطرة الاستعمار العثمـــانى ، ولا يسلم منه الا مراكش (المغرب الآن) ، وكان من طبيعة الأشياء أن تتخلف الثقافة العربية فى عهـــد السيطرة التركية وذلك نظرا الى أن الاتراك وان كانوا مسلمين ، الا أنهم لم يتعمموا اللغـــة العربية فبقوا بعيدين عن روح الثقافة العربية ، وحتى عن روح الاسلام ·· ثم لأن هذا الاستعمار هبط بالعرب الى أمة تابعة ، فهد ذلك من معنوياتها ، وأنقص من ثروتها وصرفها عن تيار التقـــدم الذى لا ينشط الا فى ظـلال السيادة والحرية · بل نستطيع أن نقول أن من أهداف الحكومة العثمانية ، كان اهمال الوطن العربى وجره الى التأخر والتدهور المادى والمعنوى حتى لا يتطلع الى الاستقلال · ويكفى أن تعرف أن تلك الحكومة لم تجد بأسا من أن تضـــع للولايات العربية حكومات قائمة على النزاع والمنافسة والسلب واقتســـام الغنيمة ، ومن ذلك سيطرة أمراء المماليك على مصر فى العهد العثمانى بكل رذائل هؤلاء الأمراء وتخلفهم الفكرى والخلقى(١) ·

وفيما يلى من صفحات سنفصل ما أجملناه من حيث ما ساد من ظروف وأحوال وما كان لها من أثر على التربية فى بلد مثل مصر ·

البناء الاقتصادى القائم على الاستغلال طريق الى التخريب الثقافى واضمحلال التعليم :

ارتبط التعليم طوال عهود التـــاريخ المتعددة فى مختلف المجتمعـات بالاقتصاد ارتباطا وثيقا ، فما من فترة تاريخية شهد فيهـا المجتمع ازدهارا اقتصاديا وانتعاشا فى أحوال الناس المعاشية الا وصحب ذلك الازدهار وذلك الانتعاش ازدهار مماثل فى أحـــوال التعليم والثقافة بفروعهـــا المختلفة ،

---

(١) أبو الفتوح رضوان : القومية العربية ، الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية ١٩٦٨ ص ٥٠ ·

والعكس صحيح ، ولعل هذه الفترة التى نتصدى لدراستها وبحث أحوالها تعد شاهدا صارخا على هذه الحقيقة ٠

فاذا كنا نقرأ فى الخطط التوفيقية لعلى مبارك أنه ابتداء من القرن التاسع الى القرن الثانى عشر (هـ) يعنى مدة ثلاثة قرون قد أهمل أمر المدارس ، وامتدت الأطماع الى أوقافها ، وتصرف فيهما النظار على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا مفارقتها ٠ وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع الالتفات الى عماراتها ٠٠٠ فامتدت أيدى الناس والظلمة الى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها حتى آل بعض تلك المدارس الضخمة والمبانى الجليلة الى زاوية صغيرة نراها مغلقة فى أغلب الأيام وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشا أو غير ذلك ٠٠٠

نقول اذا كنا نقرأ مثل هذا مما يدل على مدى ما أصيب به التعليم فى العهد العثمانى والمملوكى من اضمحلال وذبول ، فان استقصاءا بسيطا للنظام الاقتصادى فى ذلك المجتمع فى هذه الفترة ، يفسر لنا هذه الظاهرة ٠

فلقد كانت النظرية السائدة فى مصر منذ القدم أن الملك أو الحاكم هو المالك لجميع الأرض يتصرف فيها كيف شاء « فكان يقسمها بين أتباعه وأعوانه وبين المزارعين والفلاحين ، وكان هؤلاء يستغلون الأرض نظير دفع الضرائب والاتاوات المفروضة عليها ، فلم يكن لهم حق ملكية الأرض ٠ ولما وقعت مصر فى قبضة السلطان سليم ، صادف هذا النظام هوى نفسه ، فأمر بابقائه ، وبذلك أصبح المالك لجميع الديار المصرية ، ثم أمر بمسح جميع الأراضى الزراعية وتقسيمها بين الأهالى كما أمر بتسجيل هذه الأراضى وأسماء المنتفعين بها وما فرض عليها من ضريبة ٠

ولما أخذت قوة الوالى فى الضعف بعد مضى قرن على الفتح العثمانى ، وقويت شوكة المماليك ، وأخذوا يستبدون بالأمر فلم يراعوا حرمة قانون ولم يكترثوا بما كان موجودا من قواعد ونظام ، ولذا أخذوا يتصرفون فى الأراضى حسب ما كانت تملى عليهم ارادتهم ومنفعتهم حتى أصبحوا مالكين لنحو ثلثى الأراضى المنزرعة وما بقى كان موزعا بين الأوقاف والفلاحين وغيرهم ٠

وأقبل كثير من الناس على وقف أراضيهم خوفا من ضياعها ، ولأن الأراضى الموقوفة على الأعمال الخيرية كانت معفاة من دفع الضرائب ، ولكن

الحكومة انزعجت من هذا الاقبال ، فأمرت ألا يتم وقف الا باذن خاص منها ، وكان نظار هذه الأوقاف عادة من بين طائفة العلمـاء الذين كانوا يستغلون هذه الأراضى ويتصرفون فيها كأنما هى ملكهم الخاص ·

وأصابت هذه الفوضى الزراعة بالرغم من أنها كانت مصـــدرا لثروة البلاد ، فلم تنظر الحكومة بعين الاهتمام الى وسائل الاصلاح . وعلى الأخص عندما اســـتبد المماليك بالأمر دون الوالى والديوان ، وكان همهم الأكبر أن يحيطوا حياتهم بأنواع البذخ والنعيم · وأهمل الحكام انرى وتوزيع الميـــاه واقامة القناطر والجسور ، وحفر الترع والمصارف وتطهير ما هو موجود منها حتى ضعفت الأرض وانحطت الزراعة وقلت المحاصيل ·

وقد غالى المماليك فى ابتزاز الأموال من الأهالى وانغمسوا فى الترف فى مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، وصار أهل البلاد فى فقر مدقع · فلما اختفت رءوس الأموال من الأهالى أصاب الصناعة من ذلك رشاش شوه جمالهـــا وذهب بدقتها ، فتناولتها عوامل الاضمحلال · والواقع أنه كان للسلطان سليم يد فى هذا الاضمحلال ، اذ أنه جمع أمهر الصناع وأكفأ الاخصائيين فى الفنون وبعث بهم الى الاستانة لينشروا فيها ما أوتوا من علم ومهـــارة وحذق فى الصناعة · ولم يبق بالبلاد غير الصناعات الصغرى التى بقيت فى بعض مراكز الصناعة ·

واذا ما قارنا بين اقتصاد الفئات الحاكمة وبين اقتصاد السواد الأعظم من الشعب ، فسوف تصـــــدمنا المقارنة لهـــول ما تحمله من آيات الظلم الاجتماعى والاستغلال الاقتصادى · انها تبين بما لا يدع مجالا للشك تلك الحقيقة التى ينبغى أن نضـعها نصب أعيننا هنـــا وهى : كيف كان النظام الاقتصادى القـــائم على التخريب والتجويع طريقـــا الى التخريب الثقافى والتجويع العقلى ·

فعندما زار « فولنى » مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، قدر عـدد المماليك بنحو ٨٥٠٠ مملوك من الرؤساء الذين ينفق الواحد منهم على سلاحه وملبسه وزوجاته نحو ٢٥٠٠ جنيه فى العام ؛ وكان البكوات الـــكبار من المماليك يخلعون على أتباعهم فى أيام المواسم الخلع النفيسة المصنوعـــة فى فرنسا أو البندقية ، ومن كشامير الهند وحرايز دمشق ؛ وكانوا اذا أعتقوا مملوكا ورقوه درجة ، يمنحونه منزلا فاخرا مؤثثا بالرياش الفاخرة ويزوجونه فيهبونه الجوارى الحسان · وكان التنافس بين زعماء المماليك سببا فى تخريب

البلاد ، فاذا خاف أحدهم على نفسه من فتك الآخر ، يغير بجماعته على مديرية من المديريات ويستولى على خراجها وضرائبها من الملتزمين ، وكثيرا ما يستحل المديرية أو المديريتين لنفسه ملكا حلالا ٠

ولا يخفى أن الغزوات التى قام بها على بك الكبير كلفت مصر وأهلها أكثر من ستة وعشرين مليونا من الجنيهات ، وقد ذكر « فولنى » أن على بك الكبير ابتاع خنجرا مرصعا بالجواهر الكريمة بمبلغ ٢٥٠٠٠ من الجنيهات !!

فاذا تصفحنا يوميات الجبرتى لنرى الطرف الآخر ، فسنجد أنه عند ذكر حوادث عام ١١٩٨ هـ يذكر أنها انقضت ـ مثل السنة التى سبقتها ـ والشعب يعانى من الغلاء والفتن المستمرة وانتشار اتباع الأمراء فى الأقاليم المختلفة لابتزاز الأموال ٠٠ « حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم ، وطفشوا من بلادهم » ٠

كذلك لجئوا الى التجار يطلبون منهم سلفا ضخمة ، وعندما كان هؤلاء يتيقنون أن هذه السلف لن ترد ، استعوضوا خسارتهم من زيادة الأسعار ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل مدوا أيديهم الى المواريث يسلبونها سواء كان لها وارث أم لا ، وأصبح بيت المال من المناصب التى يتولاها أشرار الناس ، ما دامت الرشوة تدفع ٠ وكان لهذا ولغيره من الصور البشعة تأثير على مجموع أفراد المجتمع ، ويعلق الجبرتى معددا هذه الآثار فيقول :

« وفسدت النيات وتغيرت القلوب ، ونفرت الطباع وكثر الحسد والحقد فى قلوب الناس لبعضهم البعض ، ٠٠ فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى بها الى الظالم حتى خرب الاقليم ٠ وانقطعت الطرق ، وعربدت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ، وجلا الفلاحون من بلادهم من الشراقى والظلم ٠ وانتشروا فى المدن بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره ٠٠ فلا يجد الزبال شيئا يكنسه من ذلك » ٠

انه لمن غير المعقول وأفراد المجتمع يعانون من حرمان فى حاجاتهم الأساسية ويفتقدون الأمن ، أن يطلبوا بعد ذلك علما وأن يبتغوا تعليما ٠ وكذلك من غير المعقول لطائفة من اللصوص وقطاع الطرق يتسيدون البلاد ، تدور بينهم المعارك اليومية ابتغاء الاستئثار بغنم أو السطو على اقليم أن يفكروا بعد ذلك فى فتح مدرسة أو تقرير منهج تعليم أو تشجيع حركة أدبية أو علمية ، فكل ذلك توارى الى الخلف بعيدا ولم يطف على السطح الا الرغبة

فى لقمة عيش بالنسبة لسواد الشعب ، ومزيد من الجشع والمال بالنسبة لحكام هذا الشعب ٠

كذلك فقد أصبح من الطبيعى أن تضمحل الآداب العربية بعد ذلك وتخمد القرائح وتركد حركة العلم ٠ وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة لغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية ٠

واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عهد الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية ، وتبددت خزائن الكتب التى يرجع انشاؤها الى عهد الفاطميين ، ولم يبق منها الا المكاتب الملحقة بالمساجد كمكتبة الأزهر التى كان بها الى عهد السلطنة الفرنسية ٢٣٫٠٠٠ مجلد ٠

من أجل ذلك فنحا نبغ من عهد الفتح التركى شاعر أو عالم أو أديب ولا تكاد تجد فى هذا العصر سوى « شهاب الدين الخفاجى » و « السيد محمد مرتضى الزبيدى » العالم اللغوى المشهور صاحب « تاج العروس فى شرح جواهر القاموس » و « عبد الوهاب الشعرانى » صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة ، و « ابن أبى السرور البكرى الصديقى » صاحب الروضة المأنوسة ، و « عبد الرحمن الجبرتى » المؤرخ المشهور ٠ ولو تأملنا فى تراجم من ذكرهم الجبرتى فى كتابه من علماء ذلك العصر لـ رأينا منهم من يصح اعتباره عالما نابها فى الفلسفة أو العلوم أو الآداب ٠ وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية ٠ وكان المجيدون من الكتاب والأدباء لا يتوخون فى كتابتهم الا بتنميق العبارات بالسجع الركيك والمحسنات البديعية كالجناس والتورية ٠ واضمحلت روح البلاغة ، ولم يبق فى متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبى زيد الهلالى وعنترة والزناتى خليفة وما الى ذلك ٠ وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لدرجة أن كلمة « شاعر » كانت تطلق على جماعة يجلسون فى القهوات وينقون على مسامع الجماهير قصص أبى زيد والظاهر بيبرس وينشدونها على أنغام الربابة ٠

التركيب الاجتماعى وأثره على اتجاهات التعليم :

فاذا تأملنا فى تركيب مصر الاجتماعى فى هذه الفترة ، نجد أن العناصر الرئيسية التى كان يتكون منها المجتمع هى : المماليك ـ الأتراك ـ المثقفون ـ ارباب الحرف والصناعات ـ البدو ـ اهل الذمة ـ العوام ـ الفلاحون ـ

التجار ـ الأجانب · ودراسة التركيب الطبقى فى المجتمع مسالة لها أهميتها وضرورتها من حيث أن قيمة العلم والتعليم تتحدد بناء على القوى الاجتماعية المسيطرة كما أن أبناء القوى الاجتماعية المختلفة هم الوعاء الذى يحتوى ما سيتم من معارف ومعلومات واتجاهات ، ومن ثم سيتحدد بناء على هذا التشكل الذى ستتخذه مواد التعليم ومناهجه ·

أما أثر هذا التركيب الاجماعى الذى كان قائما على التعليم ، فاننا يمكن أن نلحظ ما يلى :

ـ بحكم تبوء بعض الأقباط لعدد كبير من الوظائف الحكومية ، كانوا يقبلون على تعلم القراءة والكتابة والأعمال الحسابية ، وكان للأقباط كتاتيبهم التى كانت تهدف الى ما تهدف اليه كتاتيب المسلمين كما تشابهت فى درجة ثقافة القائمين عليها ·

ـ وكان اليهود أكثر اقبالا على الاشتغال بالطب من المسلمين : قال داود الانطاكى فى مقدمة تذكرته : « ··· فانى حين دخلت مصر ورأيت الفقيه الذى هو مرجع الأمور الدينية يمشى الى أوضع يهودى للتطبب به فعزمت على أن أجعله ـ الطب ـ كسائر العلوم ، يدرس ليستفيده المسلمون · وتعاطى التطبيب كذلك بعض الأقباط ولا سيما الرهبان » ·

ـ صاحب وفود الأجانب الى مصر ارساليات أجنبية تهدف الى جذب أقباط مصر الى الكنيسة الكاثوليكية ، وبدأ ذلك على يد الرهبان الفرنسسكان حتى أنه فى عام ١٧٣١ م أمر البابا الرهبان الفرنسسكان بمصر بأخذ أطفال الأقباط الصغار وارسالهم الى روما لكى يتعلموا وفق تعاليم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية · ثم توافد غير هؤلاء بعد ذلك ، فأنشئت مدرسة صغيرة تجمع كل الأطفال الكاثوليك ويدرس لهم الرهبان الفرنسسكان اللغتين العربية والايطالية ، وذلك سنة ١٧٣١ فى حى الموسكى · وكذلك نشط اليونان فى هذا المجال منذ عام ١٦٤٥ م حينما افتتحت الجالية اليونانية مدرسة خاصة لها فى مصر القديمة فى دير سان جورج · ثم توسعوا بعد ذلك ، فأنشأوا مدرستين أخريين ، احداهما فى حارة الروم ، والأخرى فى حى الحواتية بالقاهرة · ثم أنشأوا مدرسة أخرى بالاسكندرية فى دير سان ساباس ·

ـ كان من الطبيعى ألا يحظى البدو والعوام والفلاحون بأى لون من التعليم لما كانوا يقاسونه من مرارة العيش واضطرارهم الى قضاء وقتهم كله

تقريبا فى الحصول على القـــوت الضرورى وباعتبار هـؤلاء يكونون الجمهرة الكبرى من المجتمع فقد ساعد ذلك على « تجميده » أو عزله عن حركة التطور.

ـ لما كانت الحرف والصناعات القـــائمة من النوع اليدوى البسيط فقد أدى هذا الى أن يكتسب الصغار هذا النوع عن طريق الممارسة والتقليد المباشر ، دون حاجـــة الى أن يتم ذلك فى معهـــد خاص عن طريق معلمين متخصصين ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للأعمال التجارية .

ـ أما العلماء والفقهاء وبعض الادباء والكتاب . فهؤلاء كان يتم اعدادهم داخل الجامع الأزهر وبعض المدارس المماثلة والكتاتيب . وكان الجامع الأزهر أكبر المعاهد العلمية فى مصر ، ولكنه مع ذلك لم يكن المعهد الوحيد للدراسات العليا ولتخريج العلماء . بل كان يوجد الى جانبه عدد من المدارس والمساجد تشاركه فى القيام بهذه المهمة . ونتيجة للشهرة التعليمية الطيبة التى كان يتمتع بها الأزهر أصبحت مساجد القاهرة ومدارسها الأخرى تعتبر وكأنها فروع له . حقيقة كان لهذه المســـاجد والمدارس أوقاتهـــا الخاصة ، ولكن كانت القاعدة أن وظائف التدريس بها يتولاها شيوخ من الأزهر .

والى جانب هذا كانت توجد بمصر ثمانى عشرة أو عشرين مدينـــة من المدن الكبرى بها مدارس للتعليم العالى ، وكان يختلف عددها فى كل مدينة من مدرسة واحدة الى سبع مدارس . وفى هذه المدارس أيضا كان المدرسون عادة شيوخا تلقوا تعليمهم فى الأزهر ، وكانت هـذه المدارس بدورها تمد الأزهر بمعظم طلابه ، وسنفصل هذا فيما بعد .

ـ أما بالنسبة للمماليك فان هذا اللون من التربية الخاصة بهم والذى كان سائدا من قبل ، لم يعد قائما .

غياب العلوم الطبيعية والرياضية وسيادة علوم اللغة والدين :

واذا كان بعض المؤرخين يؤكد أن التعليم فى العصور الوسطى سواء فى الشرق أو فى الغرب كان تعليما دينيا بحتا يرمى الى تهذيب روحانى أى الى تربية دينية أخلاقية تعد الفرد لا لهذا العالم الذى يضطرب بأسباب الحيـاة والذى يعيش فيه هذا الفرد ، بل لعالم آخر لا يصل اليه الا بعد أن تخلص روحه من أدرانها ، وبالتالى لم يكن هذا التعليم يهتم باعداد الفرد بما ينظم العلاقة بينه وبين أفراد المجتمع الذى يعيش فيه أو بما يكسبه قوة ومهارة فى معالجة أسباب المعاش بقدر ما كان يهتم بعلاقة الفرد بخالقه كمـا كانت

تتصورها فى العصور الوسطى ... نقول اذا كان البعض يؤكد هذا ، فاننا لا ينبغى أن نعمم هـذا القول على « الثقافة » التى كانت قائمة فى الوطن العربى منذ قيام الدولة الاسلامية الموحـدة ، فالحق أنها كانت تزخر بالوان العلوم الطبيعية والرياضية وغير ذلك من أسباب مغالبة الحياة وترقية شأن المجتمع .

ومع ذلك ، فقد ذبل كل هذا فيما بعد ، وأصبحت معـاهد التعليم لا تدرس الا علوم اللغة والدين والفقـه . واذا كان التعليم فى الأزهر أيام الأيوبيين قد بدأ بدراسة الفقه على المذاهب الأربعة وبعض العلوم الحديثـة كالحساب والهندسة والفلك مما أكسب الازهر أهمية كبرى وشهرة فى العالم الاسلامى أجمع ، الا أنه أصيب بما أصيبت به سائر جوانب المجتمع المصرى فى العهد العثمانى من جمود وركود ، فتحجرت دراسة اللغة والأدب بعد أن كانت موضع دراسة مستفيضة ، وأصبحت دراسة الفقه والحـديث جامدة تحفظ عن ظهر قلب ، وأخذت مظهرا شكليا محضا ، وأصبحت قائمة عـلى الحفظ والاستظهار كالدراسة المدرسية فى أوربا فى العصـور الوسـطى ، وزالت منه علوم الحياة على وجه التقريب الا ضربا من الحساب مست الحاجـة اليه فى مسائل المواريث وبعضها من مبادىء علم الهيئة لضبط الوقت وتحديد مواعيد الصلاة وبعض نظريات الهندسة والفلك ونحو ذلك .

واذا ضربنا مثالا آخر باستقراء لحالة الدراسات الطبية ، فسوف نجد أن فى أوائل القرن السابع عشر ، كانت لا تزال هناك بقايا من العلوم الطبية التى عرفها المسلمون فى عصورهم المزدهرة ، وان كانت قد تأثرت هـذه البقايا كثيرا بالسحر والخرافات . ورغم هذا ، فقد ألفت مصر وسوريا بعض الوسائل والكتب فى الطب . وخير هذه الكتب هو « تذكرة داود » لصاحبها داود الأنطاكى ، وهو طبيب ضرير ، ولد فى أنطاكية ، وفيهـا درس الطب وعلوم الأوائل واللغة اليونانية على رجل من العجم كان قد وفد على بلدته ، ثم رحل داود بعد ذلك الى دمشق ، واستقر فى القاهرة سنين طويلة ، وزار مكة أخيرا ، وبها توفى سنة ١٠٠٨ هـ .

وكانت مهنة الطب تورث ـ كبقية المهن ـ فى معظم الأحوال ، ومع هذا لم يكن غريبا أن تجد قاضيا أو عالما يعين رئيسا للأطباء .

والظاهرة الجديدة أن المجتمع المصرى ، بدأ يستعمل الى جـانب الطب العربى المعتمد على الطب اليونانى القديم ، نوعا جديدا عرف بالطب النبوى ،

وهو أشتات من المعلومات القائمة على دراسة الاشارات الطبية والصحية الواردة في الأحاديث النبوية ·

وقد أورد العالم الفرنسى « روييه » Rouyer معلومات كثيرة عن حالة الطب فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر فى الفصل الذى كتبه فى كتاب Description de Le Egypte وعنوانه Notice Sur les Médicaments Usuels Egyptiens وتبعا لهذا ، تأخر علم الصيدلة والأقرباذين ، كما تدهورت أحوال المستشفيات ، وأصبح البيمارستان يستعمل مستشفى لنعلاج ومصحة للأمراض العقلية ، وظهرت طبقة الحلاقين الصحيين تمارس العلاج والجراحة ·

ولكن فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، بدأ يظهر فى القاهرة عدد من الأطباء الأوربيين وعدد من الصيدليات الأوربية ، ويذكر Rouyer أنه كان يوجد فى القاهرة ثلاث صيدليات واحدة مديرها يونانى ، والأخريان يديرهما جماعة من البنادقة . وكان معظم روادها من الاوربيين والسوريين المسيحيين ، ومع هذا كان يتردد عليها نفر من المصريين ـ مسلمين وأقباط ـ يضاف الى هذا أن كتابين أوربيين فى الطب قد ترجما الى التركية والعربية فى أواخر هذا القرن (١٨)(١) ·

وحتى بالنسبة لبعض الدراسات الانسانية كالجغرافيا والتاريخ نجد أنها انقطعت انقطاعا يكاد يكون تاما فى هذا العصر ، ولا نكاد نجد مؤرخا مصريا له شأن أو قيمة بعد ابن اياس ، اللهم الا اذا اعتبرنا صوفيا كالشعرانى مؤرخا حين يكتب كتابه « الطبقات الكبرى » فى تراجم الصوفية·

حقيقة لقد ظهر فى مصر فى العصر العثمانى عدد من المؤلفين الذين كتبوا فى التاريخ ، ولكنهم فى جملتهم لا يستطيعون أن يرقوا الى مرتبة من سبقوهم من مؤرخى القرن الخامس عشر أو القرون التى قبله ·

وبدلا مما كان يحدث بالنسبة للأوربيين عندما كانوا يرون أعمال العلماء العرب وتجاربهم العلمية من اندهاش وذهول ، أصبحنا نرى وصفا

---

(١) جمال الدين الشيال : محاضرات فى الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الاسلامى الحديث ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٨ ، ص ١٢ ـ ١٣ ·

يوقفنا فيه الجبرتى على ما كان لديه ولدى سائر المصريين في ذلك الوقت من جهل بالعلوم الطبيعية والرياضية · فهو يتحدث عن أشياء كان علماء العرب يعرفون بعض الشيء عنها حديث الذى يرى شيئا لأول مرة ·

كذلك يصور لنا فى حوادث عام ١١٦٢ هـ مقابلة بين أحمد باشا المعروف بكوروزير والذى تولى أمر مصر فى ذلك الوقت · وكان من أرباب الفضائل وله رغبة فى العلوم الرياضية وبين صدور العلماء فى ذلك الوقت وهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى ، فتكلم معهم وناقشهم وباحثهم ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا ، وقالوا لا نعرف هذه العلوم فتعجب وسكت(١) ·

الطريقة الخرافية منهج الثقافة السائدة :

واذ تبلغ قوة النظام الاقتصادى الدرجة التى لا تصل فيها الجمهرة الكبرى من أبناء المجتمع الى الحد الأدنى الضرورى للحياة ، فانهم يشعرون بالعجز والضعف مما يدعم الاستعداد لديهم للتعلق بالغيبيات وما يتصل بها كملجأ يستعينون به على مواجهة الواقع المرير الذى عجزوا بالوسائل الطبيعية عن مواجهته ·

كذلك فان غياب العلوم الطبيعية والرياضية بالمرة ، وسيطرة لون آخر من العلوم التى تقتصر على بعض الجوانب اللغوية والدينية بمعان تبعد فى الواقع عن حقيقة اللغة وجوهر الدين ، من شأنه أن يباعد بين الناس وبين ممارسة الأسلوب العلمى فى التفكير ، فتظهر الخرافات وتسيطر طريقة التفكير الخرافى على التفكير وأسلوب المعاملة بين الأفراد بعضهم بالبعض الآخر ·

ويضاف الى ذلك شدة وقسوة الحكم وشيوع الاستبداد ، فذلك من شأنه أيضا أن يساعد الناس على أن ينهجوا نهجا خرافيا ، بل ان هذا الصنف من الحكام يهيئون للظروف التى تشجع الناس على ذلك ، لأنه من المهم لهم بالدرجة الأولى أن يعيش الشعب أغلب الأوقات ان لم تكن كلها فى غيبوبة تامة لا يدرى من أمر الواقع شيئا ، وأن يعتقد أن كل ما يحدث من

---

(١) تاريخ الجبرتى ، ٦٧ ·

آلام ومصائب أمور مقدرة لا قبل لأحـــد بهـــا وأنه هكذا كتب عليهم الذل والمسكنة ، ومن ثم يستسلمون لبطش الحكام واستبدادهم ٠

فاذا وجهنا النظر الى طريقة التعليم القائمة فى معـــاهد التعليم وهى الأزهر والكتاتيب ، فسنجد أنها مما يمكن أن نسميه « بالطريقة السالبة » حيث يقف المتعلم أمام ما يقرأ أو يسمع موقفا سلبيا بحتا لا فاعلية له الا استقبال المعلومات واختزانهـــا فى ذاكرته حتى يأتى الوقت المنـــاسب لاستظهارها واستعادتها ٠ ويرتبط بذلك أيضا اعتماد هذه الطريقة الاعتماد الكلى على الجانب اللفظى ، فالكلام لا ينتج الا كلاما ، وكان هذا منطقيا بالنسبة للعلوم والمواد التى كانت تدرس خاصة وأنها قد سيقت بطريقة تلفهـــا فى لفائف من الغموض والابهام ، الأمر الذى احتاجت معـــه الى حواش وشروح وتلخيصات وتقارير ، وما الى ذلك من طرق لم تكن تضيف جديدا بقـــدر ما كانت تعيد القديم فى صورة أخرى ٠

ويذكر أحد الطلبة القوقازيين كيف أنه حين حضر أول درس اجتمع مع لفيف من الطلبة حول كرسى عال أعد لجلوس الأستاذ ، وانتظروا قدومه حتى أقبل ، وكان عددهم نحو المائتين ، وهذا العدد كان يتفاوت بالطبع فهمـــا وادراكا ، لأن البعض مبتدىء ، والبعض سبق له حضور هـــذه الدروس ، والبعض يعيدها للمرة الثالثة والرابعة ٠ فأول ما جلس الشيخ ، فتح الطلبة كتاب التدريس ، وهو الكفراوى ، وبعد أن حمد الشيخ وصلى على النبى أخذ يشرح البسملة ويعربها ويفسر الباء وسبب زيادتها ووجه وجودها والحكمة منها وأقوال النحاة فى اعرابها والجـــائز والممتنع الى آخر ما هـــو معروف ومشهور « بسم الله الرحمن الرحيم ٠ الباء حرف جر واسم مجرور بالبـــاء وعلامة جره كسرة ظاهرة فى آخره ٠ والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أؤلف ، وأؤلف فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنا ، هذا ان جعلت الباء أصلية ، وان جعلتها زائدة فلا تحتاج الى متعلق به ، ونقول فى الاعراب حينئذ : الباء حرف جر زائد ، واسم مبتدأ مرفوع بالابتداء ، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد والخبر محذوف تقديره اسم الله ، والله مبدوء به ٠٠٠ » الخ(١) ٠

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، النهضـــة المصرية ، ١٩٤٩ ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ ٠

ويعلق الطالب القوقازى على ذلك بقوله « فكنت بين الطلبة كمن يسمع درسا بلغة لم يسمعها ولا يعرف اسمها » . كذلك يعلق أحمد أمين على نفس الموضوع قائلا : « فلو أن متكلما تكلم بالسريانية لكان أهون » .

كذلك فان نظرة الى أسماء بعض الكتب التى كانت تدرس توقفنا على مبلغ ما كان يقوم عليه التعليم من اللفظية التى لا توحى بابتكار ولا تشجع على تأليف وابداع ، فمن ذلك : أم البراهين الصغرى للشيخ محمد يوسف السنوسى ـ أم البراهين الكبرى للسنوسى (فى التوحيد) الأنوار القدسية لعبد الوهاب الشعرانى ـ تحفة الاطفال للشيخ سليمان الجنزورى ـ صحيح البخارى ـ شرح القسطلانى والعسقلانى والعينى وزكريا الأنصارى ـ موطأ الامام مالك فى الحديث ، الجزرية للشيخ محمد الجـــزرى فى القراءات .. الخ .

ولم يكن العيب عيب الكتب بقدر ما كان يشيع من أن حفظها هـــو التعليم المطلوب ومن ثم كان الطلاب يحفظونها قبل دراستها من غير فهم ، وكان أصحاب هذه المتون يتنافسون فى سلوك سبيل الايجاز فيها ، وقد استوجب هذا أن تكون أكثر عناية تلك الكتب التى وضعت لشرحها ـ تفسير غوامضها وحل معقداتها وبهذا ضاعت فيها العناية بدراسة مسائل العلوم التى وضعت فيها .

معاهد التعليم القائمة :

واذا أردنا أن نستقرىء أحوال معاهد التعليم التى كانت قائمة فى هذا العهد فسوف نجد ما يأتى :

١ ـ **الأزهر :** ظل الأزهر يتابع وظيفته التعليمية والدينية وان كانت المصائب التى أصابت مصر فى ذلك الوقت قد نالته بشىء يستحق الاشارة اليه ، فقد أخذ العثمانيون الكتب والمحفوظات والعلماء بالازهر الى تركيا أغنياءهم وفقراءهم . وفى هذا العهد أيضا نهبت أوقاف الأزهـــر وأهملت شئونه . وعلى الرغم من كل ذلك ، وعلى الرغم من المذابح التى قام بهـــا العثمانيون فى القاهرة ، الا أنهم لم يتقدموا الى اللاجئين بحمى الازهـــر الأزهر الشريف بأى سوء اجلالا له وتقديسا للحرية التى ظل يتمتع بهـــا طويلا .

ولقد أنشىء منصب (شيخ الجامع الأزهر) ابان حكم السلطان سليم ليديره بعد ما كان السلطان هو الذى يديره ، وكان الهدف من تعيين شيخ أن يتحمل مسئولية ادارة الجامع الذى ازدادت مشاكله وتعددت أعماله بعد تطوره ابان حكم المماليك ٠

وعندما زار أبو بكر العياشى المغربى القاهرة سنة ١٠٣٧ هـ أثبت ما شاهده من عدم انقطاع الدراسة والعمل بالأزهر الشريف طوال اليوم ، فقال : « وبتنا الليلة بالجامع الأزهر لأنها ليلة سبع وعشرين من رمضان ٠ وفى الحقيقة ، كل الليالى بذلك المسجد جليلة القدر لانه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار ، لا تنقطع منه العبادة ليلا ونهارا ، صيفا وشتاء »(١) ٠

ومن وظائف الأزهر المتصلة بشئون التعليم فى ذلك الوقت ، وظائف مشايخ الأروقة وكانت موضوعا للتنافس ٠ وكان شيخ الأزهر لا يعين الا بعد أن يؤخذ رأى علمائه ٠ والمعايير التى كانوا يحتكمون اليها فى هـــذا الاختيار هى : الكفاءة والمقدرة والاستقامة بغض النظر عما عليه هذا الشيخ من مذهب وقد بلغ بعضهم منزلة رفيعة عند الحكام ، وعاشوا عيشة الأمراء فى مسكنهم وملبسهم ومأكلهم ٠

واذا كان الطالب فى عصور الأزهر الأولى لا يحصل على اجازته من أستاذه الا بعد طول صحبة فى القراءة والتعليم والامتحان الدقيق ، الا أن هذا العهد قد شهد تساهلا كبيرا فى ذلك ، فقد أصبح من الممكن أن يقرأ الطالب بعض الفصول الأولى فى كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ فيكتفى بذلك ويمنح الشهادة المطلوبة ، بل لقد أعطيت الاجازة لطلاب فى بلاد بعيدة بالمراسلة وهكذا بلا تدريس أو امتحان ٠ وشذ من هؤلاء العلماء محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعى المتوفى سنة ١١٩٩ هـ ، فقد ذكر الجبرتى : « أنه كان صعب الاجازة ، لا يجيز أحدا الا اذا قرأ عليه الكتاب الذى يطلب الاجازة فيه بتمامه ، ولا يرى الاجازة المطلقة ، ولا المراسلة ، حتى أن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الاجازة ، فلم يرض ذلك ، وهذه الطريقة فى مثل هذا الزمان عسيرة جدا »(٢) ٠ وعندما كان أحد الشيوخ ينتهى من تدريس كتاب ، كان يقام احتفال كبير بهذه المناسبة ٠

---

(١) محمد سيد كيلانى : الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، ص ٣٠٠ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٢ ٠

وفي وسط الجمود والاستبداد والفساد مما كان شائعا في هذا العهد وخاصة في سنواته الاخيرة ، وقف الأزهر ليلعب دورا من أروع أدواره ، فاذا كان لم يقتصر على أن يكون مكانا لممارسة الطقوس الدينية فحسب ، فزاد على ذلك بأن أصبح معهدا تعليميا ، الا أن زعماءه في هذه الفترة أدركوا ما يجب عليهم أن يقوموا به باعتبارهم القيادة الفكرية الواعية لهذا الشعب ، فوقفوا غالبا في وجه الحكام عندما كانوا يلمسون منهم ظلما واستبدادا ، ولم يجرؤ الحكام على أن يعصوا لهم أمرا . ولعل أمثلة من تاريخنا توقفنا على ذلك :

- فنسمع في عام ١١١٤ للهجرة أي في سنة ١٧٠٢ للميلاد « أن أهل الأسواق أصابهم غبن من وراء تزييف النقود ، فاجتمعوا ودخلوا الجامع الأزهر وشكوا أمرهم الى العلماء وألزموهم بالركوب معهم الى الديوان » . فأمر الباشا باجتماع عام يحضره الأمراء والقاضي التركي والأغوات (قواد الجيش) ونقيب الأشراف وكبار العلماء . ونظر المجتمعون في الأمر واستقر رأيهم على خطة محددة تحفظ مصلحة الناس وتزيل شكواهم(١) .

- ونسمع في عام ١١٤٨ هـ ، ١٧٢٥ م أن السلطان أرسل الى مصر أمرا خاصا بشئون مالية بقصد ابطال بعض المرتبات التي كانت تصرف في وجوه خيرية ، واجتمع أعضاء الديوان لتلقي ذلك الأمر ، فلما قرىء المرسوم السلطاني بادر القاضي العثماني فقال : « ان السلطان لا يخالف وتجب طاعته » ، فانبرى له أحد الأعضاء المصريين وهو الشيخ سليمان المنصوري ، فقال : « يا شيخ الاسلام هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان . وفعل النائب كفعل السلطان : وهذا شيء قد جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة ، فلا يجوز ابطال ذلك ، واذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك ، فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطله ، وان أمر ولي الأمر بابطاله لا يسلم له ويخالف أمره لأن ذلك مخالفة للشرع ولا يسلم للامام في فعل يخالف الشرع » . وكانت وقفة الشيخ الجليل سببا في عدول الحكومة عما كانت عليه .

٢ - **المساجد الكبرى** : فقد ظلت بعض المساجد الكبرى الأخرى غير الأزهر تشارك كمعاهد تعليمية في النشاط التربوي ، من ذلك ما كان يحدث

---

(١) محمد فريد أبو حديد : زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم ، ص ٢٧ وما بعدها .

بالنسبة لجامع البحر بدمياط ، فقد وصف أبو بكر العياشى فى سنة ١٠٣٧هـ دمياط ومسجدها الكبير فقال : « وهى - دمياط - مدينة كبيرة ممتدة على ساحل النيل ، ذات مساجد كثيرة ، وأسواق حافلة وخانات عامرة ، ومرسى عجيبة ، غصت بها السفن الكبار والقوارب الصغار وفيها من أنواع الفواكه والثمار ، وصنوف الأطعمة ما لا يكاد يوجد فى غيرها » ، « وكان نزولنا بمسجدها الكبير ، وهو مسجد وثيق البناء ، فسيح الفناء ، على ساحل البحر ،يضرب الماء سوره ، يتناول الشارب والمتوضىء الماء بيده من البحر ، وهو جالس فى باب المسجد . وفى المسجد طائفة من الطلبة يقرءون ويدرسون على هيئة ما فى الأزهر(١) .

وفى طنطا جامع أحمد البدوى وبخاصة بعد أن جدده على بك الكبير وزوده بمكتبة ورصد له أوقافا ، وخصص الطعام والكساء لطلبته . وفى دسوق جامع ابراهيم الدسوقى .

ومن المعروف أن الشيخ « محمد مرتضى الزبيدى » (١١٤٥ هـ - ١٢٠٥ هـ ، ١٨٣٢ - ١٨٩١ م) كان يعطى دروسا أسبوعية فى جامع شيخون بالقاهرة ، وأقبل عليه علماء الأزهر فى أول الأمر ثم أصبح درسا عاما ، وأقبل الناس على سماعه من كل حدب وصوب ، ومن كل الطبقات : والتمس الحضور مع الشيخ ألا يكتف برواية الأحاديث وأسانيدها ، بل يشرحها لهم ، فأجابهم الى طلبهم ، وانتقل - كما يقول الجبرتى - « من الرواية الى الدراية » ، وصار درسا عظيما وأصبح الزبيدى بعد هذه الدروس حديث القوم فى حى الصليبية والقلعة ، بل فى الأوساط العلمية كلها فى القاهرة فطلب منه أهل حى الحنفى أن يخصهم بدرس آخر ، فأجاب سؤالهم ، وافتتح درسا جديدا فى المسجد ، فارتفعت مكانته وأقبل عليه الناس من كل فج لسماع الدروس الجديدة ... وهكذا .

٣ - معاهد أخرى :

وقد أنشأ محمد بك أبو الذهب سنة ١١٨٧ هـ معهدا عاما أنفق عليه أموالا طائلة ، وعين به عددا كبيرا من أساتذة الأزهر ، وجعل له مكتبة تحتوى عددا كبيرا من الكتب النفيسة كان من بينها « شرح القاموس المحيط »

---

(١) محمد سيد كيلانى : مرجع سابق ، ص ٤١ .

للزبيدى ، وهى النسخة الخطية التى كتبت فى حياة المؤلف · ورصد له الأوقاف اللازمة للانفاق على المدرسين والطلبة ، ولكن هذا المعهد خرب بعد وفاة منشئه ·

وكان بالقاهرة مدرسة للطب فى المارستان المنصورى · وقد جاء الى مصر فى أوائل هذا العهد ، داود الأنطـــاكى ودرس داود فى المـــارستان المنصورى ، وتخرج على يديه طلبة كثيرون اشتهر منهم أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ الشيخ الرئيس ، تولى مشيخة مدرسة الطب وتوفى سنة ١٠٣٦ هـ ، فخلفته بنته · ثم نبغ طبيب مصرى آخر ، هو مدين بن عبد الرحمن القوصونى ، كان موجودا سنة ١٠٥٤ هـ وهو من تلاميذ داود ، ومن مؤلفاته فى الطب : قاموس الأطباء فى المفردات · واشتهر كذلك أحمد ابن سلامة القليوبى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ وكان « فى الطب ماهرا خبيرا ، حسن التقرير يبالغ فى تفهيم الطلبة ويكرر لهم تصوير المسائل »«١» ·

٤ ـ الكتاب :

وبطبيعة الحال استمرت « الكتاتيب » كما كانت منذ أن نشأت تواصل المهمة التعليمية التى وجدت من أجلها ، بالاضافة الى قليـــل من المدارس استطاعت أن تستمر رغم ما كان يحدث فى البلاد من تخريب وافساد(٢) ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤ ·

(٢) محمد عبد الجواد : فى كتاب القرية ، مطبعة المعارف ١٩٣٩ ، ص ٢٥ ـ ٣١ ·